عبد الغني ملوك

من الحلم إلى الغراب

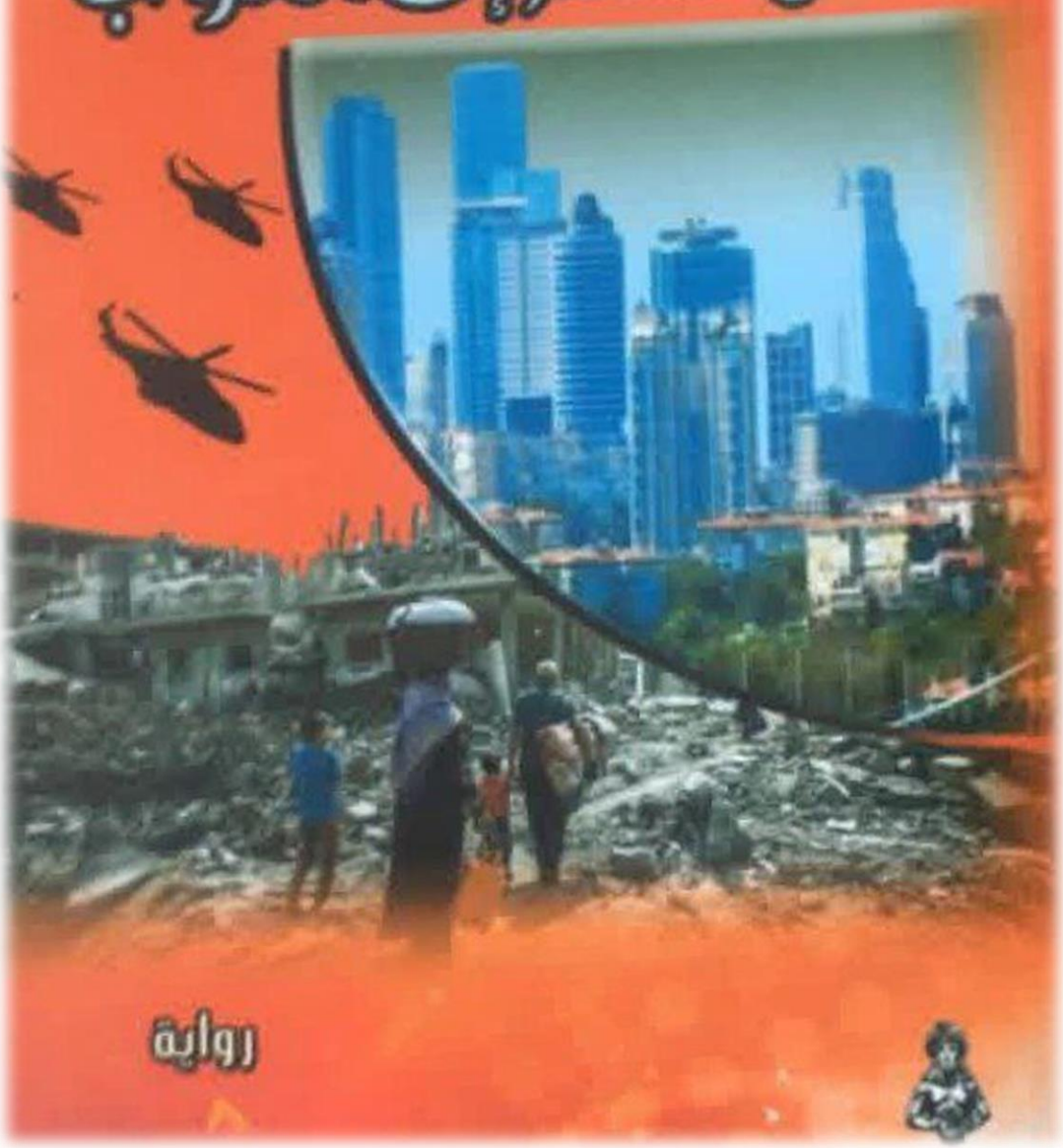

رواية

رواية

من الحلم إلى الخراب

الروائي عبد الغني ملوك

اتحاد الكتّاب العرب
إدارة المخطوطات والنشر

التاريخ 2022/9/1

التأشيرة الموافقة على الطباعة بعد التعديل

المخطوط : من الحلم إلى الخراب

تأليف : عبد الغني ملوك

المسجل برقم 490 تاريخ 2022

مدير المخطوطات والنشر

دار الينابيع – دمشق 0932061735

(يمكن على قطرة عسل اصطياد عدد أكبر من الذباب الذي تصطاده على برميل من السم)

ابراهام لنكولن

1
طاهر بومنجل وقصة حب

تلعب الصدف أحياناً في حياتنا دوراً مهماً ومركزياً ، لم نكن لنتوقعه يوماً وما يسمى بالحظ هو تفسير معقد وغير مقنع ، قد يكون له وجود محوري في حياة شخص ما ولكنّ الحظ غالباً ما يسبقه عمل دؤوب وإصرارٌ حثيث نحو هدف . وفي نهاية المطاف الأمور بخواتمها .

الإنسان في جانبٍ من حياته مسيّر ، رغم أن المبدأ العام أنه مخيّر ، ولو لم يكن كذلك لارتفع التكليف .

وبالمقابل لا يمكننا أن نهمل الصدف الغير محسوبة التي تفاجئك في مسيرة الحياة . فمهما كنت فطناً حذراً قد تؤخذ على حين غرّة . في بعض الأحيان تكون المصادفة محور حياتك التي تدور حولها كالفلك الدّوّار ، أو الفراش المتهالك على النور ، وفي هذه الحالة الفراش هالك ، وربما تكون المصادفة نهاية حياة .

وهذا ما حدث معي عندما التقيت بخالي العميد هوّاري بومنجل الذي درس في الكليّة الحربيّة في سورية ، وفي مدينة حمص بالذات . هذه المدينة التي سيكون لها شأن في حياتي وفي قلبي فيما سيأتي من أيام وقد تكون فيها نهاية المطاف . من يدري فالزمن غدّار وليس من طبع الليالي الأمان عندما التقيت خالي قال :

(السوريون أهلنا وقفوا إلى جانبنا أيام الاستعمار الفرنسي، وبعد الاستقلال، وفي كل المراحل والفترات . تبرعت نساؤهم بمصاغها لنصرة جبهة التحرير . وطلابهم بكتبهم ومراجعهم . نعم بالكتب العربية والروايات لتكريس العربية بعد الولوج في مشروع فرنسة استمر مئةً ونيّفٍ من الأعوام لم يستطيعوا طمس اللغة الأم بفضل القرآن والجذور الحيّة . إن السوريون طيبون متعاونون ومعشرهم حلو ... انتسب يا طاهر إلى جامعة دمشق . وتخرج منها وكوّن صداقات ، فالسوريّ وفيٌّ شهم ، والبنات السوريات جميلات ماجدات . وإذا ظفرت بواحدة منهن كسبت الدّارين .

الشّهادة الجامعيّة السورية معترفٌ بها في كل بقاع الأرض . والسوريون أصحاب حضارةٍ قديمةٍ جداً ، فقد سيطروا على البحر المتوسط في يومٍ ما

وجعلوا منه بحيرةً فينيقيّة . وأسّسوا دولة قرطاجة القريبة من الجزائر التي غزت روما بحركةٍ التفافيّةٍ على يد القائد هانيبعل ، قرطاجة هذه هي مدينةٌ فينيقيةٌ يعني سوريّة .. لن تندم يا طاهر بومنجل على نصحتي)

لقد عمل خالي شيئاً لدماغي وصوّب توجّهي وأدخل يقيناً في روحي، وعملت بنصيحته ولم أندم .

ولقد عملت بنصيحته بكل جوانبها وإيحاءاتها فإن ما قاله خالي حقٌ وصدق ومبنيٌّ على خبرةٍ وتجربة .

درست علم الاجتماع والفلسفة في الجامعة السّوريّة وعشت أوّل حبّ في حياتي مع الطالبة السورية الحمصية (مها عبد القادر) وكأنّ ذلك من تدابير القدر أو الصدف أو الحظ أو اللاشعور الذي كان لخالي اليد الفضلى في بنائه .

كنا ندرس في ذات الفرع ، ورغم بعد المسافة بين سورية والجزائر جغرافياً واختلاف بعض العادات ، إلا أني شعرت وكأننا توائم روح . لقد كان خالي محقّاً في نظرته صائباً في أفكاره حيث مرت بعد ذلك أحداثٌ كثيرةٌ أثبتت صواب رأيه .

على مدرّجٍ واحد كنّا نجلس ولفتت اهتمامي (بكاريزما مدهشة) ، وشخصيّة جذّابة ، وحضورٍ فاعلٍ لافت من خلال ثقةٍ مترعةٍ بالنفس وإيمانٍ بذاتها ، لكنه لم يصل حدّ الغرور هي تجادل دكتور علم الاجتماع وهو يلقي إلينا نحن المتلقّين الصامتين نظريّته . أما هي فتكره الصمت وتكثر الأسئلة والمداخلات وتحرج المحاضر أحياناً في قوة إقناعها بفكرتها حتى اضطر أكثر من مرة ليقول لها

(معك حق فالأفكار في تغيرٍ مستمر ، وتطورٍ دائم وربما أحدنا يسبق المنهاج أحياناً فهو ليس بنصٍّ مقدس أو يقينيةٍ كونية وقولك صحيح ويحتمل بعض الشّك لكننا نحتاج إلى من يشك لنصل إلى اليقين)

من هي هذه المعبّأة ثقةً وثقافةً وجمالاً وجدارةً ونضارة ؟

إنها مها عبد القادر السورية الحمصية الجديرة بالحب والاحترام واللهفة

أحببتها قبل أن أقترب منها أو أحادثها وتحينت الفرص لاصطيادها .. نعم لاصطيادها والظفر بها ولا أمانع إن هي اصطادتني ولا أظن تعبير (الاصطياد) هذا غير مناسب لمثل هذه الحالة، مع أنها ليست طائراً أو غزالةً . فالمسيح قال لتلاميذه عندما مر بهم :

(سأصنع منكم صيادي رجال بعد أن كنتم صيادي سمك. اتركوا كل شيءٍ واتبعوني) فتبعوه وأصبحوا رسل المسيح . وأنا سأترك كل شيءٍ وأتبعها فهي ملاكي وحبيبي . إن طاهر بومنجل الذي ترك الجزائر مغادراً إلى سورية من أجل العلم وبناء الذات قد ظفر بما هو أكبر من العلم والمعرفة لقد ظفر بملاك قل نظيره في الأرض ، وقرر أن يكون حارس الملاك أو ظل الملاك على الأقل .

تمكن حبها من قلبي ولكني لم أكلمها بعد، مازلت على رمل الشاطئ ، فكيف ستؤول إليه حالي إذا وصلت إلى أعالي البحار، ورجعت مصدوداً أو على نشيج الحلم منطفئ السراج

2

كانت تجلس وحيدةً إلى طاولتها في (بوفيه) الجامعة تشرب قهوتها . كانت كطاووسٍ مزدهٍ بكبريائه . مكتفٍ بثقةٍ لا حدود لها

قلت لنفسي :

(لقد أزفت ساعتك يا طاهر بومنجل فما فاز باللذة إلا الجسور)

- صباح الخير زميلة مها هل لي أن أجلس إلى طاولتك وأسألك سؤالاً؟
- ما أدراك باسمي أولاً ؟ وما هو السؤال ثانياً ؟ جاوب قبل أن تجلس

لمحت ابتسامةً تحاول إخفاءها ولم تفلح ، فعادت رباطة جأشي إليّ وقد كدت أفقدها

- حاضر سيدتي . أنت معروفةٌ في اختصاصنا بل في الجامعة كلها بأنك المتميزة المتفردة الشخصية الواثقة المثقفة ، وأشهر من نار على علم ، وسؤالي هو :
- في أي حيّ في دمشق كان يسكن ابن بلدي الأمير عبد القادر الجزائري عندما كان لاجئاً عندكم ؟

قالت :

- أنت جزائري ؟
- نعم
- اجلس أيها الماكر ماذا تريد مني؟
- صداقةٌ بريئةٌ ، وقلباً أصفى من الياسمين الدمشقي
- لا يوجد شيءٌ أصفى من الياسمين الدمشقي ، وعلى كل سأرى إن كنت جديراً وصادقاً فيما تقول . قلت :
- سأجلب قهوتي وأعود .

جلست قبالتها على مقعدٍ يستند إلى الأرض لكنني كنت محلقاً في سماءٍ لازوردية وبحالةٍ من الهيمان وكأنني أسبح في الملكوت . وكانت هذه بدايةٌ طيبةٌ ، وخطوةٌ ستعقبها ألف خطوة .

... واستمرت اللقاءات ، وفي كل لقاء معها تزداد لهفتي إليها وتكبر كنا نتكلم عن الأحلام أكثر من توصيف الواقع أو الغزل الذي يغرق في أوصاف المحبوب كانت جديةً أكثر من اللازم وكان عليّ للاحتفاظ بها أن أجاري جديتها بالفكر والرأي والحكمة .

ومن هذه النقطة بدأت علاقتنا وتطورت من الإعجاب إلى الاحترام والاهتمام وإلى الحب المضمر الذي تفضحه العيون ومن ثم إلى الأفكار والمعتقدات التي شاركتني في اعتناقها وشاركتها في الإيمان بها .

وأهم تلك المبادئ (إن العطاء أفضل من الأخذ وإن خدمة الناس والأوطان أهم من تكديس الأموال والثروات . وأن التضحية جوهر الحياة وأساسها وأن قيمة الإنسان بما يقدم لا بما يأخذ) وللأمانة كانت تلك الأفكار مشتركة بيننا من قبل أن نلتقي ولقد آمنت بتلك المقولات والأفكار قبل أن أعرفها وكان معارفي يستهجنون أفكاري تلك ويعدونها طوباوية وتنمّ عن عدم خبرة كافية في الحياة ولكنها لم تكن كذلك . اعتقدنا معاً أن تلك الأفكار صفة أساسية من صفات العظمة وعلى أصحاب الرسالات التحلي بها وقد قررنا أن نسير على الطريق ذاتها ، ونؤمن بذات الأهداف وأن نكرس كل ذلك في سلوكنا فنحن أصحاب رسالةٍ على هذه الأرض .

زاد تعلقي بها مع الأيام وتدرجت من الإعجاب إلى الحب ثم الشغف والعشق ولا أغالي إذا قلت أنني وصلت إلى درجة العبادة ، ولاحظت هي ذلك الشعور الطاغي الذي أعيشه وتعلقي الزائد بها فقالت لي :

- أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما

قلت :

- معاذ الله أن يصل الأمر إلى هذا

وبادلتني الحب بعاطفةٍ هادئةٍ غير معلنة ، ولكن بدا لي أنها عاطفةٌ صادقة حبٌ هادئ عميق . لم يصل إلى ما وصلت إليه من غلو في حبي لها .

وفي يومٍ طرت فيه من الفرح يوم قالت لي بعد شهورٍ من أول لقاء (أحبك) ولا أدري لماذا أحبك ..

وكنت قد سبقتها بقول هذه الكلمة لها كانت تبتسم ولا ترد بمثلها كانت تتمتم وتقول تحبك العافية .

أربعة أحرفٍ فقط كانت كافيةً لتدخلني في دائرة الطباشير القوقازية . فلا أستطيع الخروج من تلك الدائرة الوهمية لكنها الحقيقة الآسرة . حب أقوى من الموت ومن الزمن ، ولو كان ملك الموت ذاته يجرني من تلك الدائرة لأخرج لما خرجت لأن حبنا ممتدٌّ لما بعد الموت . كان حبّاً روحانيّاً مقدساً وكان نورانياً بل و أسطورياً وكنت أعتقد جازماً أن ليس له مثيلٌ على وجه الأرض، ولا حتى في الكتب أو الروايات، إنه أهم وأعمق من حب الذين خلدتهم دواوين الشعراء والكتّاب ، إنه حب الملاك الذي ليس له مثيل .

أمضيت السنوات الأربعة في الجامعة وتخرجنا معاً في العام نفسه . زرت أهلها في حمص مراراً وتناولنا ألذّ الموائد وصار بيننا خبزٌ وملح وتلقيت احتراماً متزايداً في كل زيارة ووثقوا بي وكنت أهلاً للثقة .

بعد التخرج فاتحتها بالارتباط ثم الزواج لكنني فوجئت بقولها :

- طاهر بومنجل اذهب إلى بلدك وابنِ نفسك وأدِّ رسالتك تجاه وطنك ثم عد إليّ وقد نضجت سأنتظرك مهما طال الزمن
- نبني حياتنا معاً
- سأبني نفسي بنفسي وأزيد ثقافتي وأخدم بلدي وشعبي ثم ألتفت إلى بناء أسرة وأنجب نسلاً صالحاً
- العمر لا ينتظر
- لا تكن أنانياً أو ضيق الأفق هذا قراري

حزنت وتخيلت أن ذلك رفضاً مبطناً ، ولكنه في الحقيقة لم يكن كذلك لأنها تحبني كما أحبها . في معتقدها أن خدمة الأوطان أولى من أنانية الإنسان

التي تأتي في الدرجة الثانية وسألت نفسي هل إن كل السوريين يحملون تلك الأفكار ؟ ربما وإلا لماذا سميت سورية قلب العروبة النابض وضد الاستعمار والطغاة على مر الأزمان .

3

بعد تخرجي حملت شهادتي وقلبي ينزف على فراقها لكننا اتفقنا على دوام المراسلة والاتصالات ، لم نفترق إلا على أمل اللقاء ، كان وداعاً حميمياً تخللته دموع في المحاجر ولأول مرة تلامس شفتيّ وجنتاها ، وهي أيضاً ودعتني بالمثل . كان هذا الحب عذرياً وكان بالمقابل قوياً. قالت :

- ستعود يا طاهر بومنجل لأن من يشرب من ينابيع سورية لابد وأن يعود إليها ، عد أصلب عوداً وأقوى شكيمةً .

قلت والدموع تنسكب على الخدود ،سأغادر ولكنني سأعود .. فلقد تركت على هذه الأرض روحي ..سأغادر جسداً لكن روحي ستبقى عندك لقد كانت ماتزال في الشرايين والأعصاب .

وصلت الجزائر في حالةٍ نفسيةٍ ثائرةٍ وعازمةٍ على أن أثبت لها أني جديرٌ بها وسأكون من أعظم الناس عملت على تكوين نفسي وتراكم ثقافتي وراسلت الجامعات الفرنسية لعلي أحظى بمنحة لأثبت لها أني جديرٌ بحبها وأنها ماتزال في قلبي تحثّني على الارتقاء ...

كنا نتراسل ونتهاتف وأحكي لها ما في نفسي عن عملي وعن ثقافتي تشجعني على العمل والارتقاء وكانت تقول(إن ممارسة الحياة لا تكون إلا غلاباً وكفاحاً وهي تحتاج من المرء أن يصلّب نفسه كإسبارطي وأن يعدّ نفسه ويمرّن جسده وإرادته وأن يكوّن عقله بالحكمة والثقافة ليكون كحكيمٍ يوناني ليتأهّل بجدارةٍ لحمل الرّسالة أو ربما لحمل صليبه ولكلّ منا طريق جلجلة وصليبٌ وإكليل شوك، ولكن بالمقابل سبت نور وقيامة من بين الأموات وعليه أن يقهر الموت بالموت فلا خوف من الموت لأنه هو الوجه الآخر للحياة) .

كنت أوافقها على بعض أفكارها وأتحفّظ على بعض وعندما كانت تنهي محادثتها كنت أكون قد تحولت إلى إنسان آخر وقد اكتسب روحاً إضافية وشحنة ملائكية وأملاً لا حدود له وعزيمةً تقهر الجبال .

سألتقي بها يوماً وأتوحّد بها كما يتوحد الصوفي بالحضرة أو يتوهم وإن لم أفعل فلن أحقق شيئاً في هذه الدنيا . إن مها عبد القادر السورية رمز الخصب والحياة والتجدد والانبعاث إنها أفروديت الخالدة آلهة الحب والخصب والجمال .

4

وافقت إحدى الجامعات الفرنسية على إعطائي منحة مجانية للدراسة فيها، حصلت على منحةٍ لدراسة سيكولوجيا الجماهير، آمل بعدها نيل الماجستير والدكتوراه. استمر الأمر سنين وكنت أدرس وأعمل وأختبر الحياة وأتعلم منها، ولا أضيّع دقيقةً واحدةً وتعاقبت بعد ذلك دراساتٌ في السوربون وفي جامعة ليون في فرنسا، رأيت الجمال بأنواعه، والمحبين بأشكالهم، لكنني لم ولن أرى مثل أفرودوت آلهة الخصب والجمال التي تعرفت عليها في دمشق. ورغم انقطاع رسائلها مؤخراً والتي استمرت شهوراً من التواصل بعد مغادرة سورية، إلا أن حبها لم يغادر قلبي وروحي ولم يفتر الشوق بل إن البعد قد زاده اشتعالاً ولهيباً.

تخرجت بعدها لألتحق موظفاً في منظمة الأمم المتحدة وهي وظيفةٌ عالميةٌ والرواتب مغرية. وللحقيقة فإنني كنت أطمح أن أكون مدرّساً في إحدى الجامعات الجزائرية بمدينتي وهران، وفي ذلك خدمةٌ لبلدي الجزائر. إلا أنني كنت متحمساً كذلك للانخراط في سلك تلك المنظمة الدولية لأصبح موظفاً عالمياً ذا شأن وليكون لي دورٌ في إصلاح هذا العالم المتردّي وكنت أظن أن الأمم المتحدة تسعى من خلال السلم العالمي وتنمية الثقافة وإشاعة العدل والإنسانية بين شعوب الأرض كافة لكنني مع الأسف وبمرور الأيام أصبت بخيبة أمل اكتشفت أن هذه المنظمة تقع تحت سيطرة دولٍ كبرى تحركها وفق مصالحها وتكيل بمكيالين في فرض السيطرة والإملاءات على الدول الصغيرة وكنت أخاطبك يا مها عبر الخيال والأثير قائلاً :

- هل تريدين إصلاح الكون والكون يُحكم بأفكارٍ شيطانيةٍ تزرع الشرور وتجافي الحق

كنت أكلم مها في خاطري أكلمها وكأنها معي نعم كانت روحها معي ولم تفارقني يوماً وستظل معي أبداً...

تدرجت في الارتقاء بوظيفتي وعُينت كمفتشٍ في المناطق الساخنة ومناطق النزاعات والحروب للاطلاع على أسبابها ومنشئها ولأرفع كل تلك المشاهدات والتعليقات والأفكار إلى الأمين العام ومن معه وفي مطلق الأحوال لم يكن لرأيي ورأي زملائي قيمةٌ أو دور فالأمور مسيّسة والحق للقوي دوماً، والضعيف ليس له إلا الصبر، والصبر هو حيلة العاجز.

وفي يومٍ ما قرر بوش الابن احتلال العراق وبحث عن مبرراتٍ وحيل قانونيةٍ أو شرعية وكان لابد له من استخدام هذه المنظمة فأوحى إليها أن العراق يطوّر أسلحة التدمير الشامل وهو بذلك يهدد السلم العالمي وهو تبريرٌ لا أساس له من الواقع وكُلفت الأمم المتحدة بالتفتيش عن هذه الأسلحة في أنحاء العراق كافةً بواسطة خبراء ترافقهم قوات التحالف. خبراءٌ من الأمم المتحدة الذين لا حول لهم ولا طول إلا إعطاء تبريرٍ شرعي لأعمالٍ عدوانيةٍ صرفة ستحدث لاحقاً.

فأرسلت أنا مع من أرسل من الوفود، لتفتيش المرافق الحيوية الهامة والاستراتيجية في العراق. وكان يتم أخذ سمت مواقعها بدقة من قبل من رافقنا من قوات التحالف لتضربها صواريخ كروز فيما بعد واحتل العراق في ربيع عام 2003 وتم تدمير بنيته وآباره البترولية وقتل أكثر من مليون عراقي وقد دخلت مع القوات كتيبةٌ اسمها بلاك ووتر كانت مهمتها اصطياد علماء العراق واغتيالهم فالعدو يخشى العلم ومراكز الأبحاث والاختراع ويشجع الجهل والتخلف وكل الأفكار التي غايتها التناحر والاقتتال بين الطوائف والأديان بين تلك الدول.

وأما(المعارضة) الذين جاؤوا على ظهور الدبابات الأمريكية فقد أُلقي إليهم بالفتات والذل.

ما أبشع الخيانة عندما يمارسها أخوك في الوطن والأصح نظيرك في الخلق فالخائن ليس أخاً. ما أتفه الخيانة وما أذلّ الخائنين.

بدأت الخطابات في مجلس الأمن لتبرير احتلال العراق وسكتت وفود الدول خوفاً أو ممالئةً فصمتت والصمت إقرار بالوقائع وتأييد لما جرى تجرأ الوفد السوري ممثلاً بوزير الخارجية معارضاً الاحتلال ومنددّاً

بالسياسة الأمريكية والكيل بمكيالين ولم يرق ذلك لقوات التحالف وللموالين والخائفين ولم تقم الجامعة العربية يومها بدورٍ يذكر أو بدورٍ فاعل فصمتت مع الصامتين غضب المتحالفون من موقف سورية وقالوا في غرفهم المغلقة ستقبلين الأمر بشروطنا طوعاً أو كرهاً.

5

جاء الدور على سورية بعد أن انتهت المحافل من استكمال تخطيطاتها الجهنمية في عام 2011 على سورية مستغلة الجور والظلم الذي كان يقع على أبناء شعبها ومن سياسةٍ جائرةٍ ظالمةٍ سادت سورية برمتها فقد كان ثمة احتقانٌ طائفيٌّ وولاءاتٌ عشائرية لنظامٍ لم يعرف كيف ينشر العدل والمساواة بين أبنائه. كانت لحظة الحساب والانتقام ضد سورية حُبكت خطةٌ لأخذها من الداخل ولتدميرها بالوكالة حيث استعدت بعض أبنائها على بعض وتسربت من خلال نقاط الضعف مستعينةً بالجهل والتعصب وبالارتزاق وبغباء الحكام مستغلين أخطاء الحاكم وأخطاء موظفين وإداريين وأولاد متنفذين غير منضبطين وأشخاصٍ قدسوا المال واستغلوا المنصب وأشاعوا الفساد حتى أصبح منهجاً ...بالمقابل قام أشخاصٌ شرفاء هدفهم الإصلاح والمطالبة بالحرية وكانت البيادق المختلفة المتناقضة تحرك على رقعة شطرنجٍ تشمل سورية بأكملها.

في هذه المرحلة كُلفت من قبل الأمم المتحدة (وقد ترقيت في السلم الوظيفي وتدرجت للأعلى) كُلفت بعمل استطلاع ميداني لدراسة سيكولوجيا الجماهير السورية بمختلف فئاتها وانتماءاتها للوقوف على الأسباب التي أدت إلى ما أدت إليه فالتقيت بأشخاصٍ عاشوا المأساة وكانت لهم أفكار

ومن جملة التعليمات التي تلقيتها من رؤسائي بأن ألتقي بمنظماتٍ وهيئاتٍ من مختلف الشرائح للوقوف على آراء الناس من الحرب والاحتجاجات وكانت المهمة شاقةً بالفعل وكان عليّ في نهاية المطاف أن أرفع تقاريري فيما أرى وفيما يحدث.

لقد انتشرنا أنا وزملائي في معظم المناطق السورية وكان لنا هامشٌ من الاختيار فاخترت المنطقة الوسطى ومدينة حمص بالذات كمركزٍ لإقامتي

ولغايةٍ في نفسي الله يعلمها لعلي أجد ضالتي المنشودة وحبي الأول مها عبد القادر التي ضاعت مني في يومٍ ما

سأعثر عليها مهما كلف الأمر ....

وذهبت إلى حمص وكان ما كان.

6

بدأت العمل بشغفٍ لتنفيذ مهمتي في شقٍّ ...وفي الشق الآخر البحث عن فردوسي المفقود في ذات الوقت. أجريت المقابلات وسمعت الشهادات ودرست البيانات وقمت بالاستطلاعات التي احتفظت بها في مكتبي الذي خصصوه لي في مبنى حكومي عليه حراسةٌ مشددة. وها أنا الآن أضع بين أيديكم بعض تلك الشهادات من أشخاصٍ أحياء عانوا المأساة ومن أناسٍ يقودون منظمات لتخلصوا معي أن الشعب بكامله وعلى مختلف فئاته كان يكره تلك الحرب ويكره التعصب والطائفية والانقسامات ويحب السلم والتعايش. حاولت أن تكون لقاءاتي بانورامية تعبر عن رأي كل مكونات الشعب السوري وهاكم بعض النماذج.

جورج الثابت – العمر خمسة وعشرون عاماً بائع قطع تبديل سيارات :

أسكن مع أسرتي في حي الحميدية بحمص ازدهرت تجارتنا لأن العديد من شركات بيع السيارات قد تكاثفت وصار الناس يشترون السيارة بسعر معقول أساعد أبي في العطل وأوقات الفراغ.

فوجئنا في شهر آذار من عام 2011 بمظاهرة احتجاجية قرب الساعة القديمة متجهةً إلى دار الحكومة تهتف مطالبةً باستقالة محافظ مدينة حمص هذا المحافظ الذي كان مدعوماً من رأس النظام وكان هدفه الظاهر كما زعم النهوض السريع لقلب المدينة القديمة إلى مدينة أبراج ومولات تسوق تبين فيما بعد أن غايته افقار سكان المدينة الأصليين وإذلالهم وقد استخدم أساليب إدارة هي من العنف والتسلط الأقرب من أن يكون سياسياً عادلاً.

لقد درست السياسة والاقتصاد في جامعة دمشق قبل أن ألتحق بدكان أبي وقد تعلمنا في الجامعة أن الأداء تحكمه الإمكانيات ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب كل ذلك يوفر الوقت وينجز العمل أما الأحلام والعواطف فلا مجال لها في عالم الأرقام.

إن سياسة الناس ليست بالأمر السهل وأن فرض الضرائب الباهظة لتمويل المشاريع ليست بالحل الأمثل لكن هذا المحافظ اتبع عكس ما دلت عليه الكتب والتوصيات لقد مزج هذا المحافظ بين النفع العام الذي ظاهره بناء مدينةٍ حضارية وبين منافعه الشخصية حيث شارك البورجوازيين في هذه المدينة في أرباحهم وخاصة في برج الكاردينيا وكانت له حصةٌ كبيرةٌ دون أن يدفع مالاً من جيبه بل فساداً واستغلال نفوذ وقد رفع هذا المحافظ شعار حلم حمص كنايةً عن أنه يحلم بمدينةٍ يريد أن يصل بها إلى المدن المتطورة جداً فبدأ بالاستملاكات التي طالت قسماً كبيراً من سوق الناعورة وغيره من الأسواق القديمة ولذلك كانت الاحتجاجات .. اعتبرت السلطة السياسية أن مطالب تلك الاحتجاجات ليست غايتها سياسية وإنما هي مطلبية ولاحتواء الأمر زادت قليلاً من الرواتب للموظفين تخوف الناس من القادم أن تقلب هذه المظاهرات إلى انقساماتٍ طائفية وقد بدأت بعض البوادر وشك الناس بأن تكون من السلطة ذاتها التي تريد أن تكون هي الحكم وهي بيضة القبان التي تحقق العدل بين المتناحرين .

عبد الرحيم السبسبي – موظف في وزارة الأوقاف – إمام جامع العمر خمس وخمسون عاماً:

تخرجت في كلية الشريعة بدمشق وتفقهت فيها وأظن أنني فهمت جوهر الإسلام ومراميه وأن رسولنا الكريم جاء ليتمم مكارم الأخلاق ولم يأت لينقض فرسالته هي رسالة السلام(ادخلوا في السلم كافة) ومن مبادئه أيضاً

(إذا جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) إنه رسالة إنسانية يتسامى أمامها البشر. تدعو للمحبة والتآلف والتعاون وجوهر الإيمان مكانه في القلب ولا يمكن للبشر أن يعرفوا مكنونات القلوب، وبالتالي لا يمكن محاسبتهم من قبل البشر(ولو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعاً).

لقد أعطى الله الإنسان العقل والقلب ليستنير بهما في طريق الحياة ولم يوكل فئة أو شخصاً لمحاسبة الناس أو إدانتهم وقال:(لا تحاسِبوا لئلا تُحاسَبوا) فما بال أناسٍ يحاسبون على ما في قلوبهم وقد أثارت الفتنة أبناء الشعب الواحد واستخدمت السكاكين في ذبح الرجال والنساء والأطفال على حد سواء والذريعة أنها هي من الإسلام وليس الذبح والقتل من الإسلام في شيء وقال تعالى : (ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) قيل أن السلطة تستعدي الطوائف على بعضها وأن هناك موالات ومعارضون فكلهم سوريون قاموا بالتنافس والاقتتال واستغل البعض الدين وكانت هناك تنظيمات خارجية تتبع لمخابرات دولٍ لها مصلحةٌ في أن يقتل هذا الشعب بعضه بعضاً وهكذا تم تزييف الحقائق.

عمر البرادعي – مساعد في الأمن والشرطة- العمر خمس وأربعون عاماً :

جاءتنا التعليمات بأن نتصدى للمتظاهرين الذين يخرجون بعد صلاة الجمعة وأن نصفي قادتهم ومن يحركهم البعض من هؤلاء كانوا أرباب سوابق وتجار مخدرات لكن المجموع كان يريد الحرية ونزع القيود والمساواة ما بين الناس تطور الهتاف إلى(الشعب يريد إسقاط النظام) والبعض نادى بقيام دولة إسلامية في العراق والشام اتخذوا من المساجد منصاتٍ لهجماتهم.

في الحقيقة كانت مطالب عامة الشعب غير ذلك إن الشعب السوري يكره الطائفية والفتن ويبغض الظلم والمحاباة الشعب يريد الأمان وتأمين رغيف الخبز ويريد السلام يريد الحرية وتكافؤ الفرص استغلت الحكومة الفوضى لتصفية خصومها الخوف الآن من حدوث مجازر وارتباكات.

عبد الغفار زينو – مدير مدرسة – العمر خمس وخمسون عاماً:

أحجم بعض الآباء عن إرسال أولادهم إلى المدارس، وحدثت انشقاقات في مفاصل الدولة، هرب إلى الأردن ولبنان مواطنون خوفاً على أموالهم ومدخراتهم تم تعفيش البيوت المهجورة وقام بعض رجال الأمن بسرقة الذهب ومصاغ النساء... بعض القتلى من الموالين وجدت في مناطق

المعارضة وبعض القتلى من المعارضين وجدت في مناطق الموالين هل هذه هي الفوضى الخلّاقة التي بشّرت بها(كونداليزارايز)؟

قامت السلطات بتقطيع الشوارع ووضع الحواجز والتدقيق في الهويات لاعتقال المسلحين أو سوق الشباب إلى الجيش ووضعهم على خطوط النار دون دريبٍ كافٍ.

تشكلت ميليشياتٌ من الحزب الحاكم وبعض أحزاب الجبهة كرديفٍ ومساعد وحدثت تجاوزات لا أول لها ولا آخر من قتلٍ وتمثيلٍ في الجثث وسرقة ممتلكات وتعدٍّ على الحرمات واعتصم المسلحون وهذا ما أصبح يطلق على الثوار والمحتجين الذين سيطروا على حي الحميدية والأحياء الملحقة به في حمص القديمة وأقاموا فيه كانتوناً مدججاً وكذلك في حمص الجديدة(الوعر) مشكلين من ذلك بؤراً وجزراً لتبادل إطلاق النار وانتقلت الاحتجاجات من شكلها السلمي إلى شكلها المسلح الدموي ويقال بأن الحكومة قررت الحسم العسكري وبكافة الأسلحة مهما كلف الأمر واستخدمت فيما بعد الغازات.

هاجمت مجموعة مسلحة نادي الضباط في حمص ومزقت صور الرموز وقتلت بعض الحرّاس وقيل أن أنفاقاً حفرت تحت الأرض إلى خارج المدينة يدخل منها السلاح والذخيرة وفي هذا الوضع اللاأمني والابتزاز والسرقة والنهب من قبل عصاباتٍ خرجت عن سلطة الدولة في ظل انشغالها كما تشكلت عصاباتٌ لسرقة السيارات وقتل أصحابها.

قالت المعارضة أن الحكومة هي من تشجع هذه العصابات بل وتدار من قبلها.

بُثّت حبوب المخدرات وانتشرت على نطاقٍ واسع وكانت توزع مجاناً من قبل أناسٍ لهم مصلحةٌ في ترويجها وظهرت معامل لتصنيع حبوب الكبتاغون المخدّر وكانت السلطة تقوم بالترويج والبيع من أجل تمويل ماكينتها كما كان يقول بهذا المعارضون.

<u>ريتا طنوس الغزلانى – طالبة جامعية- العمر عشرون عاماً :</u>

يشكل حي الحميدية مع أحياء حمص القديمة نسيجاً اجتماعياً متحاباً ومنسجماً بين مسيحيين ومسلمين، يشربون القهوة الصباحية على صوت فيروز ويسهرون في المساء كأحباء في تلك البيوت القديمة بأحجارها السوداء والبيضاء مع حديقةٍ مزروعةٍ بأشجار البرتقال والليمون والورد الجوري والياسمين الدمشقي.

بالقرب من بيتنا، كان بيت(شامان الأبلق) شاب وسيم خلوق ودود هوجارنا الوفي. تزور أمي أمه وتشرب معها القهوة الصباحية. ألتقيه أحياناً في الطريق فيسلم عليّ بعيونٍ متوهّجةٍ حلوةٍ وعسلية، نتبادل أطباق الطعام في بعض المناسبات. دخلنا الجامعة معاً وبنفس الاختصاص نلتقي في(بوفيه) الجامعة ونتجاذب أطراف الحديث تطورت صداقتنا إلى حب متوهج ثم إلى عشقٍ وولهٍ ترافق حلمنا الخاص مع حلم حمص كمدينةٍ حضاريةٍ متطورة نشعر بفرحٍ عظيمٍ لا مثيل له حين نلتقي باركت أمي هذا الحب وشجعت أمه علاقتنا.

يحضر معي أحياناً قدّاس الأحد ويقول ما أقرب يسوع إلى قلبي.

نصوم معهم يوماً في رمضان كنوعٍ من المشاركة ووحدة الفكر. لقد جمعنا معاً يسوع وما جمعه الرب لا يفرقه إنسان. كنا نحلم بعائلة، وتكوين أسرة يترافق مع حلم حمص . عندما كان يضمني إلى صدره أتلاشى كغيمةٍ تحولت إلى مطر، نتبادل رسائل الحب في الليل على الخليوي بشوقٍ لا يوصف. حلمنا بالزواج وببنتٍ وصبي واخترنا لهما الأسماء الأديان لا تعارض الحب ولا إنجاب النسل كنت ألتقي وإياه عند الأب فرانس، هذا الراهب النقي التقي المحبوب من الجميع والذي كان ينظم وينفذ مسيراتٍ روحانيةٍ مسلمين ومسيحيين، كانت يدي بيد الشامان لا تفارقها ودقات قلبينا في تناغمٍ هرموني لذيذ طيلة مسافة المسير.

ومرة ذهبنا معاً برفقة آباءٍ في رحلةٍ إلى دير موسى قرب النبك في القلمون وصعدنا 360 درجة حتى وصلنا إلى القمة. حيث مقر الرهبان وأب الدير. تناولنا جبنة الماعز وزيتوناً مكبوساً ومملحاً من نفس شجر المنطقة والذي يغطي السفح، قامت راهباتٌ على جمعه وإعداده، نمنا في غرف

الدير، وسهرنا مساءً تحت سماءٍ مرصّعةٍ بالنجوم. كم كنت سعيدةً في تلك الأيام المقدسة حيث حلمنا بقانونٍ ييسر مثل هذه الزيجات فكثيراتٌ هنّ اللائي عشقن شباناً مسيحيين وكنّ مسلمات أو بناتٍ مسيحيات عشقن شباناً مسلمين ويتوقون للزواج منهم لا أظن أن الرب يعارض أو يقف في وجه الحب هو على العكس تماماً.

في يومٍ عبوسٍ قمطريراً. قنص القنّاص الغادر حبيبي شامان بطلقةٍ متفجرةٍ فتتت كبده، كان يحمل ربطة خبزٍ سال دمه عليها. كان في طريقه إلى بيتنا يقدم الخبز إلى أمي التي عجزت عن تأمينه لنا في ذلك اليوم ولكنّ شامان حصل عليه ودفع دمه وكبده ثمناً له لكنه أوصله إلينا ممهوراً بدمه في وقتٍ كنا بحاجةٍ إلى كسرة خبز. القلب مجروحٌ مدمى فمن يشفيه لماذا كل هذا أيها الأحباب قال البعض أن القنّاصين كانوا يعتلون الأبنية العالية وقد وضعتهم الحكومة لاقتناص المعارضة

يونس الأحوش – أمين مستودع جثث في المشفى المركزي:

تأتينا جثثٌ كل صباحٍ مقطعة الأوصال وممثلٌ بها شاذّون وساديّون ونساءٌ مغتصباتٌ مقتولات يسيل الدم من بين أفخاذهنّ ورقابهنّ من مختلف الأحياء موالين ومعارضين وحّدهم الموت.

وضع مجرمون قنابل في وسائط النقل ثم نزلوا فانفجرت بعد قليلٍ بمن فيها فامتلأت المستشفيات بجثث الأطفال والنساء.

قامت الحكومة بقصف أماكن المسلحين الذين تمركزوا بين السكان العزّل فمات كثيرٌ وتقطعت الأوصال وتواردت إلى المركز جثثٌ فوق جثث قالت الحكومة أن المسلحين يلوذون بالبيئة الحاضنة التي أتتها قنابل الهاون من كل صوب.

إلياس الأقرع – طالب في كلية الطب بجامعة البعث – العمر اثنان وعشرون عاماً :

بيتي في حي المحطة بحمص قرب كنيسة البشارة تعرفت في كلية الطب بزميلتي انطوانيت سركيس، كنت أشاهدها سابقاً في الأخويات، حيث نتلقى

الموعظة يوم الأحد ونتناول القربان، تأكدت صداقتي بها عندما درسنا فرع الطب البشري، كانت تسكن هي في حي الأرمن شرقي حمص، وتركب(سرفيساً) وهو عبارة عن واسطة نقل تسع عشرة أشخاص، يتكدس فيها خمسة عشر.

نجلس في المدرج لصق بعضنا أكتب المحاضرة وأختلس نظرات الحب إليها، كم هي قريبةٌ من الروح والقلب. تشتعل الذاكرة وتنشط وتتضاعف الإمكانيات بفعل الحب كم هو مولّدٌ للطاقات الإيجابية، إذا تبودلت المشاعر بصدقٍ ووفاء. قالت لي :

(سنكوّن بعد التخرج أسرةً وننجب صبياً وبنتاً ستكون عيادتنا ببناءٍ واحد لنكون قريبين من بعض وسنجعل يوماً في الأسبوع علاجاً مجانياً لمن يأتي، فلا نأخذ بدلاً أو نقوداً لأن هذا الشعب الطيب يحتاج للمساعدة ورد الجميل).

كنت أنتظرها في(بوفيه) الجامعة نشرب القهوة الصباحية معاً ونحلم بمستقبلٍ جميل. تعرفت الأسرتان على بعضهما وتبادلنا الزيارات العائلية مع الأهل لكن السعادة لا تدوم.

كان يوماً أسود مشؤوماً، يوم انتظرها فيه فلم تأتِ سمعت من زملائي أن الهاون قد ألقى بحممه على سيارات نقل الطلاب.

احترق السرفيس بمن فيه وأصبحت الجثث فحماً. لا أعرف لمَ حدث هذا فحبيبتي لا تحمل الحقد لأحد ولا تكره أحداً، نحن نريد السلام لكل الناس ونريد أن نحيا بأمنٍ وأمانٍ ونحب بعضنا بعضاً علمنا المسيح بقوله (حبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم).

شكوت للمطران حالتي فربت على كتفي وقال: (طوبى لك لقد خضعت للتجربة ونجوت فمباركٌ صبرك).

7

من خلال المقابلات التي أجريتها والناس الذين التقيتهم اكتشفت أن الآراء رغم تشعبها وتعددها تسعى إلى الوئام والعيش بسلام وأن شيئاً ما أو قل شيطاناً ما دخل ما بين النسيج ليتصادم الجميع بطريقةٍ مصطنعة وهم لا يريدون ذلك المشكلة أن بعض التيارات تريد تطبيق ما آمنت به واعتقدت أنه يجب تطبيقه على الجميع وبالقسر معتقدةً أن أفكارها هي الحقيقة المطلقة والمشكلة الخطيرة هنا تكمن في إلغاء الآخر وتدميره وربما كانت مشكلات العالم المتخلف هو عدم تحكيم العقل وعدم الإيمان بالمحبة كأسلوب حياة أو كطريقةٍ للخلاص أو كمنهج عيش، إن الإيمان بالدولة القوية المتماسكة العادلة هي ضمانٌ لأمن الأفراد والجماعات لكي يعمل الجميع لمصلحة الجميع والفرد حرٌّ في اختيار أفكاره الخاصة بحيث لا يسعى إلى فرضها بالقوة على غيره وإن أكثر السوريين يؤمنون بهذا الهدف وهذا المنطلق لكن هامش الحرية المفروضة عليهم ضيق. وخير مثالٍ أورده عن الدولة التي تنهض بمجتمعها هي اليابان حيث قيل بأن الياباني يعمل عشرين ساعة في اليوم، وضمن منظومةٍ أخلاقية وتفاعلية لا تهدم الآخر ولا تلغيه فالدولة ليست مؤدلجة لتفرض عقيدتها وتلزم الجميع باعتناقها بل مهمتها رعاية المواهب وإنشاء مراكز الأبحاث وتفعيل الإبداع والاختراع والسعي للتقدم والحضارة عن طريق المنافسة الشريفة . مهمة الدولة هنا المحافظة على الأمن والحقوق بالعدل وتكافؤ الفرص وسيادة القانون والمواطنة والمحافظة على الممتلكات العامة وحمايتها لأنه ملك الجميع وأن تحطيم ماكينة الدولة يعني تحطيم المجتمع لأن قوة الدولة وهيبتها هي أمان للفرد والمجتمع.

وفي يومٍ ما ألقوا القنابل الذرية على هوريشيما وناغازاكي ومات الآلاف وتشوه الملايين. رأوا أن الرد على العدو هي منافسته في الحياة وليس بالموت فلم يسعوا إلى امتلاك القنابل الذرية أو تسليح الجيوش بل كان الرد

هو في السعي لاكتساب سبق المنافسة في العلم والتكنولوجيا والاقتصاد القوي.

لقد قمت باستطلاعاتٍ متعددةٍ لصالح منظمة الأمم المتحدة أجريتها على مختلف التيارات والاتجاهات والمجموعات في الأزمة السورية ذكرت بعضها على سبيل المثال فتبين لي أن الجهل وقلة الوعي لدى البعض هي أسوأ ما تمتلكه من ثقافاتٍ عفا عليها الزمن والدهر وأن أسوأ الحكومات هي التي تظلم شعبها فلا تعطيه الحرية والعدل تقرب البعض وتبعد الآخرين. كل تلك الحالات تجعل المجتمع جاهلاً أو ناقماً أو ينتظر التغيير يوماً ، ولوكان الوعي واليقظة متوفرين لم يحدث الذي حدث . وفي المحصلة فإن الجميع خاسر.

8

ذهبت اليوم إلى اللجنة الأمنية في المحافظة للحصول على إذنٍ بالعبور إلى المناطق التي يسيطر عليها المسلحون في حي الحميدية لأجري مقابلةً مع (الأمير الذي يقود التمرد واسمه الحركي أبو القعقاع الباهلي) لأرى وأكتب وجهة نظره وأقف على أفكاره ولماذا تمرد على السلطة والحكومة؟

الصعوبة بدايةً كانت في الدخول إلى هذا الجحيم.. اعتراني ظلٌّ من شكٍّ وخوف فهؤلاء كما يشاع عنهم يذبحون ولا يتكلمون وسكاكينهم جاهزةٌ لجز الأعناق هكذا هي الفكرة الرائجة لا يبالون في اغتيال الصحفيين والسفراء والمسالمين.. دخلنا في سيارةٍ عليها شعار الأمم المتحدة ترفع علماً أبيض معي مرافقان ومصور وما بين الأرضين كانت ثمة حدوث تماس بينهما برزخٌ خطر وكان لابد من عبوره وعندما قطعناه رأينا رجلاً ملثمين ، كأنهم أشباح أو مردة من الجن يحملون البنادق والقاذفات وعلى ظهورهم وصدورهم تتكدس مخازن البنادق منهم من يضع عصائب سوداء ومنهم من يضع عصائب حمراء منهم من يلبس قلنسوات سوداء لا تظهر منها إلا العيون، وكنت أعرف أن هناك أكثر من فصيل يتبع لأكثر من جهة أحياناً تكون متنافرة ..الجيش الحر .. الإسلاميون.. الأفراد العسكريون المنشقون عن جيش النظام.

كنت أعلم أن سكان هذا الحي من المكون المسيحي يتشاركون مع المكون الإسلامي عيشاً مشتركاً متحاباً ومتآلفاً وكانت الكنائس بجوار المساجد والجوامع.

قادني أحد الملثمين إلى مسؤول كبير قد يكون أمير الحي أو قائد الميليشيا رجل طويل في أواخر الثلاثين من عمره لحيته سوداء كثّة عيناه تقدحان شرراً وغضباً ورغم ذلك استقبلني بترحابٍ بعد أن بادرته بالسلام عليكم جلسنا في غرفةٍ عبارةً عن قبو في بناء قديم من الحجر البازلتي بعد عباراتٍ من المجاملة قال :

- لماذا جئت وقد خاطرت على غير طائل ربما يغتالونك ويقولون أن الفصائل قد اغتالتك

قلت:

- أنا موظفٌ وحياتي كلها مخاطر وقد كُلفت من الأمم المتحدة لأقف على أسباب النزاع بينكم وبين الحكومة وتشاع أقاويل أريد أن أتأكد منها مثل أنكم تريدون إرجاع الخلافة أو إقامة حكمٍ إسلامي سياسي

قال:

أسباب النزاع معروفةٌ لمن يريد أن يتحرى الحقيقة والأمم المتحدة قبل غيرها تعرف حقيقة النزاع أتريدها بكلمةٍ واحدة .. إنه الظلم وصنوه الاضطهاد والتفرقة ما بين مكوّنٍ ومكون القيود في كل مناحي الحياة والحرية مفقودة نحن يا سيدي نريد الحرية لشعبنا وأن يقرر مصيره في الحكم الذي يشاء لا نريد أن نكفّر الناس فالله قال في قرآنه(من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

خرجنا في اعتصامٍ سلمي حول الساعة فقابلونا بالرصاص والحصار ولم نطلق طلقة واحدة وجرت الدماء وقُتل نساءٌ وأطفال...

جرى جدالٌ بيني وبينه عن أن الحكم الإيديولوجي الديني وغير الديني قد زال من عصرنا وأن الدولة هي من تحمي شعبها ولا تفرض عليه رأيها قال لي: هذا ما يقرره الشعب بعد الانتصار أو حين سماع رأيه وتراثنا هو الأخلاق فهل تريدنا ان نتخلى عن أخلاقنا؟

رأيت أن الجدال معه لا يؤدي إلى نتيجة وأنني جئت لأقف على رأيه لا أن أجادله لكنه منعني من أخذ الصور وقال هذه منطقةٌ عسكريةٌ لا يجوز التصوير فيها. قلت : هذا حيٌّ مسيحي بأكثريته وفيه أيضاً مسلمون فهل هاجر المسيحيون ومن بقي في الحي. قال: نعيش مع المسيحيين الذين غادر البعض منهم وليسوا جميعاً قد غادروا نعيش أخوةً وقد أحبونا وأحببناهم لهم كنائسهم يمارسون فيها عبادتهم بحرية ولا نمنعهم عن شيءٍ

ألفوه وفي القرآن يقول الله(.. وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه..)

المسيحيون ليسوا مشركين في نظرنا وتوجد كلمةٌ سواء وأرضية مشتركة فيما بيننا وبينهم ولذلك نجالسهم ونسمعهم كلام الله ولهم الخيار فيما يعتنقون وعندنا الأب(فرانس) وهو راهبٌ هولنديٌّ عاش زماناً طويلاً في هذا الحي وتآلف معه المسلمون والمسيحيون يشرك الجميع في مساراته الروحية سابقاً أما الآن فنحن جميعاً محاصرون هل تريدون مقابلته؟ أجبت نعم وسيكون ذلك مفيداً.

قادنا عنصرٌ من الحرس إلى كنيسة قديمةٍ وأوصلونا إلى مقر الكاهن. استقبلنا بوجهٍ نورانيّ وملامح سمحةٍ محبّة جلسنا معه وبدأ الحديث.

- هل تعيشون بأمانٍ مع هؤلاء الذين سيطروا عليكم بالسلاح ومنعوكم من المغادرة؟
- هم مجموعاتٌ عدة أكثرهم يحبوننا ويحتضنوننا البعض يكرهوننا ولا نعرف الأسباب
- هل ترغبون المغادرة إلى الأماكن التي تسيطر عليها الحكومة
- في كلا الحالين لم يعد هناك أمان القتل والاختطاف وسرقة أموال الناس صارت مباحة وكل فريقٍ يلقي باللوم على الفريق الآخر قال يسوع(حبوا أعداءكم ،باركوا لاعنيكم، أحسنوا لمن أساء إليكم) ثمة مجموعاتٌ مخترقةٌ من قوات الحكومة ترسل لها الأخبار وحالات المسلحين ونحن على الحياد لا نشجع طرفاً على طرف. قلت برأيك هل تستطيع الأمم المتحدة أن تفرض السلام على كل الأطراف؟ قال
- الدول الكبرى تفرض سطوتها والأمم المتحدة ليس لديها القوة وأعتقد أن السلام سيأتي في نهاية المطاف بقدرة الله.

جرت أحاديث متشعبة بيني وبين هذا الكاهن المحبوب وقد ارتحت لأفكاره ورغم أنه هولندي إلا أنه يتمتع بحب وطني لهذه الأرض ويقدس قيم يسوع التي لا تفرق بين الناس.

قضيت يومين في الحي المحاصر.. ثم قررت العودة من حيث أتيت إلى مقري الذي خصصته لي الحكومة في مناطقها .. حذروني من عملٍ دامٍ عنيف يقوم به طرفٌ ويزعم أن الطرف الآخر هو من فعله ونفذه. وصلنا إلى برزخ التماس وكدنا أن نصل إلى المناطق التي تسيطر عليها الحكومة فوجئنا بزخاتٍ غزيرةٍ من الرصاص تيارٌ كهربائيٌ سرى في جسدي وانبجس دم علمت فيما بعد أنني سحبت من منطقة الخطر إلى مشفى الهلال الأحمر ومضى وقتٌ لا أعرف مداه لكنني استرديت الوعي على لمسة حنانٍ تطوف على خدي لتصل إلى جبيني فتحت عيني فعاد الوعي بكل يقظته وارتدت الروح فرحةً مشرقة.

كانت مها عبد القادر بذاتها تمسح بحنانٍ وجهي، وتعيدني إلى الحياة، أي مسيحٍ جاءني في تلك اللحظة فشفاني بقدرة الله وأي ملاكٍ تولاني فأبرأني بشفاعة المسيح. حاولت التحرك كي أجلس، لكنّ الشاش والأربطة والأنابيب وكيس السيروم وعدم قدرتي على الحركة منعوا تنفيذ ما عزمت عليه. قالت مها عبد القادر بصوتها الحنون :

(لابأس عليك لقد زال الخطر وحمداً لله على سلامتك) .

عقدت الدهشة والمفاجأة لساني فأرتج عليّ، لكني ابتسمت وأشرق وجهي بنورٍ ومحبة وهكذا اعتقدت. قالت :

(أترى كل شيءٍ في الحياة ممكنٌ وقابلٌ للتحقق. حتى الخروج من لجّة الموت ممكن. لقد قمت من بين الأموات يا طاهر وقهرت الموت بالحب لقد اجتمعنا أخيراً ولكن وسط الدمار والخراب فيا لقدرة الله)

قلت:

- لقد اجتمعنا و قد أراد الله عودتي إلى الحياة بلمسة حنانٍ طالما تقت إليها عبر سنين .

قالت :

- هو كذلك وأنا قد سعدت بإنقاذك ورجوعك .. ارتح الآن وسنتكلم كثيراً فيما بعد

أدركت الآن أنني قد عدت من الموت إلى الحياة إلى نبع الحب والصفاء الروحي. وكأن كل تلك الأهوال التي مرت وعشتها هي أضغاث أحلام. لمسة حنانٍ منها كانت كافيةً لتعيدني إلى الحياة من جديد عليّ أن أتماثل للشفاء بسرعة وهذا ما سيحدث لأن ملاكي يداويني ويشرف على تأهيلي للحياة والفردوس الموعود.

مر وقتٌ قال فيه الطبيب عليه أن يبقى في المشفى كل فترة النقاهة وعلمت فيما بعد أن هذا كان بإيحاءٍ من مها نفسها التي قالت للطبيب(اتركه في المشفى كل فترة النقاهة فأنا سأشرف على شفائه التام وعلى دعمه النفسي) وبالمناسبة فإن مها عبد القادر قد أصبحت مسؤولة الدعم النفسي والمعالجة السيكولوجية للأمراض النفسية الناتجة عن الحرب، وتشغل أيضاً نائبة مدير الإدارة المحلية للشؤون الطبية والكوارث ولها حظوةٌ كبيرةٌ لدى أولي الأمر في المحافظة لما تتمتع به من سمعةٍ عطرة ومن تفانٍ وأعمالٍ جليلة. وهذا كله عرفته فيما بعد من خلال لقاءاتي بها، فقد صار لدينا وقتٌ للمحادثات والمناجات.

عادت المياه إلى مجاريها، وانبعث الحب من بعد سبات.

قالت :

- كم طال غيابك يا طاهر حدثني عن الغياب وماذا عملت؟
- بعد خمس عشرة سنةً من الغياب التقينا. مرت فيها مياهٌ كثيرةٌ من تحت الجسر كما يقولون لكنك لم تغيبي لحظةً عن بالي
- وأنت ماذا عملت؟
- كنت أطفئ حريق الغياب والشوق بالعمل المتواصل وبناء الذات وقد وصلت إلى ما وصلت بفضل ذلك كما أخبرتك
- كيف حال والدك وأهلك؟
- لقد توفي والدي منذ سنتين محترقاً بسيارته عندما سقطت قنبلة هاون على مقدمة سيارته في حي المحطة ومن جهةٍ أخرى أمر الباهلي برمي قنابله بغزارة فسقطت على حافلةٍ لنقل طالبات الجامعة وانتشرت أشلاء المارة في الشوارع هكذا مات أبي مثل ما احترق

بقية الناس. هؤلاء يرمون والجيش يرد الميليشيات تنتقم والمؤيدون والقوات الرديفة تنتقم بفعالية أكبر وبفظاعة وماتزال ماكينة الدم تعمل بنشاط. قلت :

- ألهذه الدرجة يبلغ الحقد الأعمى

قالت :

- أيدٍ خارجية تدير اللعبة وتريد شيطنة الإسلام لتشويهه مستغلةً الجهل والعصبية والطائفية لضرب أبناء الشعب الواحد ببعضهم. لقد دمجوا بين الإرهاب والإسلام الذي هو دين السلام

كنا في المقبرة ندفن بقايا عظام أبي المحترقة التي جمعناها من السيارة المستهدفة وكان المقرئ يرتل الآيات(وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) فهل كان أبي معتدياً؟ وأطفال الروضة وطالبات الجامعة والمارة معتدون؟ وما هو ذنبهم يا أيها المتقاتلون؟ وأنتم جميعاً سوريون.

قلت :

- هل كانت هناك أخطاءٌ ارتكبتها الحكومة في إدارة البلاد؟
- بعض الأخطاء كان يرتكبها موظفون في الإدارات الدنيا من مؤسسات الدولة غالباً وأحياناً في مؤسساتها العليا.. عرقلة معاملات المواطن وعدم استقباله ببشاشةٍ وترحيب الغاية ابتزازه لممارسة الرشوة. الكيل بمكيالين للأقارب والأصدقاء والولاء قبل الكفاءة خريجو جامعات يعملون سائقي سيارات أجرة أو يفتحون دكاكين الخضرة دون أن يأخذوا حقهم في التشاركية. أناسٌ سرقوا جيرانهم وعفّشوا بيوت من هاجروا وحدثت تجاوزاتٌ وارتكابات كان هامش الحرية ضيقاً جداً كخرم إبرة وكانت الدولة تخاف ممن يلقي إليها بالنقد ولو كان النقد بناءً وتحكمت الأجهزة وأوغلت في غيّها وداست القانون ونشرت الرعب والخوف بين المواطنين البسطاء والذين لا سند لهم ولاظهر وكان من الممكن الإصلاح لكن أولي الأمر لم يجدوا السبيل المناسب فلجؤوا إلى السلاح والحل الأمني.

قال عمر بن عبد العزيز مرة لأحد ولاته :

- سيّج مدينتك بالعدل فالأسوار لا تحميك إن اتبعت طريق الظلم وتنكبت العدل

وهذا مع الأسف ما كان يجري ولم يكن ثمة عدل.

تماثلت للشفاء تدريجياً، وتخرجت من المشفى، وعدت إلى مكتبي الذي كان قد أُعدّ لي. بدأت بتجهيز التقرير النهائي الذي سأسلمه لرئيسي في العاصمة، تشاورت مع مها وتجادلنا بقضية انسحابي من منظمة الأمم المتحدة. قالت :

- استمر لنرى النتائج وأظن أنهم سينحازون إلى المسيطر الأوحد على هذه المنظمة.

في هذه الفترة التي أسمتها مها الوقت الضائع، وأسميتها أنا هذه الفترة بأنها حياةٌ حقيقية أعيشها مع من أحب، كنا نخرج في نزهاتٍ إلى مناطق آمنةٍ تماماً مثل طرطوس والتنزه على شاطئ البحر، لكن وقتها كان ضيقاً ومليئاً بالعمل.

عرفت أنها رئيسة جمعيةٍ لمكافحة السرطان، وأنها قد رُشحت لتكون سفيرة النوايا الحسنة لمنظمة حقوق الإنسان. ولما كنت أحاول تحويل الحوار إلى مآل الحب وعلاقتنا كانت تقول :

- لم يؤن الأوان بعد

قلت لها :

- ما الأسباب؟

قالت :

- حتى تشفى سورية من محنتها

كانت تظن أن المحنة شهورٌ وتزول لكنها استمرت سنوات

10

سافرت إلى دمشق وسلّمت تقريري إلى رئيس الخبراء هنّأني بسلامتي ونجاتي من الكمين وعندما دخلنا في صلب الموضوع قال

- ماذا تفيد التقارير؟ قلت له
- أأنت تقول ذلك؟ ولماذا نعمل إذن ونعرّض أنفسنا للخطر؟ قال
- نحن موظفون

أصبيت بإحباط وقررت الاستقالة مهما تكن النتائج ، عدت أدراجي إلى حمص يائساً محبطاً وعند وصولي استقبلتني وكأنها تعرف ما جرى

قالت :

- النتائج غير مشجعة أليس كذلك
- كيف عرفتِ ؟ وكأنك كنتِ معي
- من ملامح وجهك وحركة جسدك
- أتقرئين لغة الجسد
- نعم وأدير مركزاً للبرمجة اللغوية العصبية ومعالجة آثار الحرب وعقابيلها يرتاده المعانون
- لم تخبريني بهذا من قبل من عادتي أن أعمل بصمتٍ ولست مدّعياً
- أنت عبقريةٌ وفلتة زمانك
- لست كذلك أنا سورية وحسب

ما هذه المرأة التي تكبر في عيني وتمنحني دهشةً وإعجاباً وانبهاراً فأزداد تعلقاً

11

قررنا أن نقضي عطلة نهاية الأسبوع في طرطوس. هي مدينةٌ على البحر هادئة تدعم الحكومة وترفدها بخزّانٍ بشري من الموظفين والجنود. هي مدينةٌ هادئةٌ آمنةٌ لكنها حزينة يأتي جثامين أبنائها بتوابيت ملفوفةٍ بعلم البلاد.

جلسنا في المقهى البحرية متقابلين، كانت وشوشة الأمواج موسيقى ناعمة، تدغدغ الأحاسيس المرهفة وتضفي على النفس أماناً واطمئناناً وراحة.

جاء النادل بالقهوة والماء ثم انسحب. قالت

- في هذه المدينة لا يوجد عنفٌ أو اقتتال بل جنازاتٌ لجنودٍ وضبّاط يخدمون في أماكن العنف والقتال. ألا تلاحظ الحزن المخيّم على الوجوه.

قلت:

- شدّة وتزول
- ستتكرر المأساة إن لم تستأصل الأسباب، هناك أسبابٌ تؤدي إلى هذه النتائج
- ما هي الأسباب؟
- الصينيون بنوا سور الصين العظيم بحماية بلدهم من الغزوات لكن هذا السور لم يحمِ الصين من الغزوات والاجتياح. كان يكفي شراء الحارس ليفتح لهم الأبواب.
- ما وجه الشبه؟
- ترهّل الحامل(الحزب الحاكم) ولجأ إلى الدعة، ازداد الحراس كمّاً على حساب النوع وتقاطر الذباب على بقعة العسل. لم يكن هناك تطويرٌ ولا تحديثٌ كما زعم، الأدمغة بقيت كما هي وأصاب الهزال الضمائر بل ماتت أحياناً عن البعض

- المعمول به عندكم هو الولاء قبل الكفاءة وهذا في رأيي خطأ فالكفاءة هي أساس النجاح. إن هناك عدم تكافؤ للفرص وهناك مواطنون درجات.. والفقير الغير مدعوم مواطنٌ من الدرجة العاشرة.

قالت :

- أحياناً عدو ذكي خيرٌ من صديقٍ أحمق الأحمق يضللك والانتهازيّ يراوغك، وتضليل القيادات أسوأ أنواع البطانات لقد قال نابليون أنه ربح المعارك بقادة الفصائل يعني أنه اعتمد على الإدارات الدنيا التي تحتكّ بالجماهير وتحلّ مشاكلها لا تكون فوقها ولا تدّعي أنها في الطليعة، من يعمل فقط يكون في الطليعة والحامل قد شكل طبقةً(أرستقراطيةً) تتباهى بأنها الحاكم وأنها فوق الجماهير ولذلك أساءت للقيادات العليا لقد انتشر الفساد حتى أصبح منهجاً وتلوثت الأيدي المسؤولة جميعها تقريباً. قلت
- ما هو الحل في رأيك؟
- أشبع الناس وحاسب المخطئ بقسوة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب وهذا العمل يجب أن يتم بخطةٍ تصحيحية يقودها رجلٌ حازم. المواعظ لا تجدي يجب أن يكون القادة والحامل هم القدوة على الأصعدة كافةً.

كانت يدها على الطاولة مسترخيةً وضعت يدي فوق يدها الناعمة الرخصة مثبتاً نظري في عينيها لكنه لم يتعلق فيهما كثيراً سحبتها بسرعةٍ قائلةً:

- طاهر بومنجل هل تريد أن تراهق من جديد؟
- هذه ليست مراهقة إنني أرتاح لدفئها
- كيف للمرء أن يرتاح وسط هذا الكم الهائل من الدمار البلد يدمّر بمنهجية. قلت
- إذن لنهدّئ أعصابنا بشرب قليلاً من البيرة

قالت :

- لا لا أشربها ولا أريد أي مخدر في العالم مادي أو معنوي نحتاج اليقظة والوعي ولا نحتاج التخدير المشاكل تُحل بهمة الرجال العظماء المعبئين باليقظة والخبرة والمعرفة والتجارب

طلبت فنجانين إضافيين من القهوة تابعت ما انقطع من حديث فبادرتها بقولي :

- هل أنت مع شعر(جوّع كلبك يتبعك) قالت
- من أين تأتي بهذه المقولات؟
- من حق أي إنسان أن يشبع في وطنه خاصة إذا كان يعمل ويخدم بلده من يعمل يجب أن ينال كفايته وينال كرامته وعلى كل مسؤولٍ أن يدرك ذلك علينا أن نربي الأجيال على العزة والكرامة الذليل الجائع لا يدافع عن وطن بل قد يساوم عليه ويبيعه. ومن ليس له بيتٌ دافئٌ في وطنه وعدلٌ وتكافؤ فرصٍ وشعورٍ بالهوية لا يدافع عن بلده بل يقول كل بيتٍ دافئٍ يحويني هو وطني.

كانت هذه الأفكار تقولها بحماسٍ وثقة ولابد أنها ستشارك في تطبيقها في يومٍ من الأيام عندما يزول الفساد ويذهب الترهّل بعد هنيهةٍ نهضت منزعجة وهي تقول :

- لنعد إلى حمص قبل الغياب فهناك حواجز طيّارة ينفذها لصوصٌ يرتدون لباس الجيش، امتهنوا الخطف والقتل والسرقة وادّعوا أنهم من الثوار مرة أو من الجيش مرة.. ذهب الأمن والأمان الذي كان مخيّماً فيما مضى.

12

زادت حدّة الاشتباكات وقوي المسلحون وتقلصت سيطرة الحكومة. طلبت الدعم من الطيران الروسي فبدأ الطيران يقصف المدنيين الذي قيل أن المسلحين يختبئون بينهم وأن هؤلاء السكان هم البيئة الحاضنة. ألقيت البراميل المتفجرة من الحوامات على أحياء بكاملها دون تمييز فدمرت مدن ودساكر وقرى. سيطر المسلحون على الغوطة وأصبحوا قريبين من القصر الجمهوري فقامت القوات الحكومية بإلقاء الغازات السامة على المناطق الخطرة الحامية فمات خلقٌ كثير. قررت الدولة الحسم العسكري مهما كلف الثمن واستدعت حزباً لبنانياً للقتال معها يحمل شعاراتٍ طائفية فاحتل مدينة القصير غرب مدينة حمص ووصل الأمر إلى الذبح بالسكاكين دون تفريقٍ بين طفلٍ أو شابٍّ أو شيخٍ أو امرأة. فر السكان بأعدادٍ كبيرة مهاجرين عبر البحار إلى الدول الأوروبية التي استقبلتهم بدواعٍ إنسانية وخاصة ألمانيا التي كان لها الدور الأكبر. استغل سماسرةٌ دوليّون هذه الظاهرة. أركب المهاجرين بقوارب مطاطيةٍ صغيرةٍ(بالمات) أخذوا أموالهم وكبوهم في البحر فغرق أكثرهم وأصبحوا طعاماً للأسماك بلغ عدد المقتولين في هذه الحرب في سورية أكثر من مليون أما المهجّرين فكانوا كما قيل سبعة ملايين.

عرضت الدولة على المسلحين بعد أن انكسرت شوكتهم بهذه الضربات الخروج إلى إدلب بسلاحهم الفردي فقط وتعهدت بالحفاظ على حياتهم حتى الوصول وأصبحت إدلب في نظر الحكومة عاصمة التمرد وفي نظر الثوار مدينةً متحرّرة. تم إجلاء المحاصرين في حمص من حي الحميدية ومن حي الوعر الذين كانا محاصرين ويشكلون بؤراً تم إخلاؤهم مع أسلحتهم الفردية بالباصات الخضر.

كانت مها تطلعني على الأخبار والأحداث أولاً بأول وقالت أن المسلحين تركوا وراءهم ألغاماً ومفخخات معتقدين أن الدولة ستدخل إلى هذه الأماكن قلت لمها:

- تعالي نترك كل شيءٍ ونذهب إلى الجزائر أو إلى فرنسا هرباً كما فعل الآخرون . قالت
- ما هذا الكلام؟ أتريدني أن أترك بلدي في وقتٍ هو أحوج إليّ من أيّ يومٍ آخر، إذا فعلت أكون خائنة.

بينما كانت الأمور تزداد تعقيداً وكآبةً وتحول الحلم إلى خراب ازدادت مها إصراراً وعزيمةً وتفاؤلاً.

لقد قررت أن أعدّ كتاباً يجمع بين الرواية والسيرة الذاتية والتاريخ السريع عما جرى ويجري في سورية مستعيناً بآراء الناس ومعاناتهم وبما قابلت وأقابل من حالاتٍ مأساويةٍ تفطر القلب، لم تحدث في أسوأ حالات التاريخ سواداً ومأساوية وحدّثت مها عن مشروعي هذا فشجعتني وأبدت المساعدة، واقترحت التوثيق بالصور وأقوال الناس على اختلاف مشاربهم، لقد خسر الجميع ولم يربح أحدٌ. ليس من رابحٍ في هذه الحرب لأن الأحلام قد تحولت إلى خراب.

وأنا أعدّ كتابي ووثائقي اقترحت أن نذهب إلى حي الخالدية في حمص لتصوير الخراب الهائل لقد دُمّر الحي بكامله قُتل خلقٌ كثير وهاجر الباقون ركبنا في سيارة يحدونا أملٌ في مستقبلٍ مجهولٍ رغم الدخان والخراب ورائحة الجثث. كان خراباً ودماراً فظيعاً .. طوابق عدّة فوق بعضها سوّيت بالأرض. وبيوتٍ مفروشةٍ كانت تُمارس فيها الحياة والمحبة أصبحت قاعاً صفصفاً، وأصبح سكانها عصفاً مأكولاً. أين الحكمة بل أين الوطنية انقلبت الأمور إلى غابةٍ تسرح فيها الوحوش.

رائحة الموت تفوح في جنبات تلك البيوت المدمرة. هناك بيتٌ أصابه التدمير من جانبٍ وبقي قائماً أوقفنا السيارة ونزلنا معاً كانت مع مها كاميرا تصوير تنوأ بحملها أمسكتها من يدها ومشينا باتجاه الخراب. لم نكن ندري ماذا سيخبئ لنا القدر كنا مدفوعين برغبةٍ نحو قدرنا المكتوب أو حظنا الذي سنؤول إليه أو إلى صدفٍ مميتة، تجولنا بحذرٍ في هذا البيت الواسع شاهدت مها لعبةً جميلةً عليها آثار دم قد تكون دماءً لطفلةٍ كانت تحملها.

قلت في نفسي: لقد تحرك في داخلها شعور الأمومة لأتركها تجلب اللعبة ولم أفكر في المخاطر. قالت

- ستكون ذكرى لنا ولأولادنا أيها الحبيب.

كانت اللعبة في أقصى زاويةٍ من البناء. قالت لي:

- امسك بالكاميرا يا طاهر.. سآتي بهذه اللعبة.

لم أكن أدري أن هذه لعبة الموت. سارت خطوتين أو ثلاث، ثم وجدتها تتسمر في مكانها وقد اصفرّ لونها وتغيرت تعابير وجهها وصارت كأنها ليست هي مها الحقيقية أصبح لونها كالزعفران استدارت بكتفها ونصفها السفلي جامدٌ كالصخر لتقول :

- اذهب يا طاهر بومنجل إلى السيارة واجلب لي حقيبتي. قلت
- ما لزوم الحقيبة الآن؟ سنعود سويةً مع لعبتك إلى السيارة.

لكنها صاحت بعصبيةٍ لم أعهدها من قبل

- طاهر اذهب إلى السيارة كما قلت لك. و ائتِ بالحقيبة وإلا قتلتك.

استغربت منها هذا الموقف وهذه الصرامة التي بدت لي غير عقلانية فامتثلت للأمر وعدت إلى السيارة وما كدت أفتح بابها حتى دوّى صوت انفجارٍ رهيبٍ كصوت الرعد، واهتزت الأرض تحتي، سقط قلبي وكدت أفقد رباطة جأشي فالانفجار أتى من المكان الذي تسمّرت فيه مها صحت بصوتٍ قويّ مهتزٍ خائف.

- مها ماذا جرى هل أنت بخير؟

لم أسمع صوتها بل وصل إلي الدخان والغبار من ذلك المبنى الملتهب.. هرولت مسرعاً إلى المكان كان الدخان والغبار يغطي بعض الأركان وما يلبث أن ينجلي رويداً رويداً. اتضحت الصورة كانت مها أشلاء كل ذراعٍ وطرفٍ منها في زاوية تهتّك الجسد وامتلأ برذاذ الدم أصابتني رعدةٌ وخوفٌ وشعورٌ رهيبٌ صعبٌ وصفه. يا الهي كيف حدثت المأساة بلحظة وانهارت الآمال وقضي الأمر. انكمشت على نفسي كقنفذٍ يتكوّر مدافعاً عن

حياةٍ ستسلب منه كنت أجهش في البكاء المرير وأرتجف قشعريرةٌ وارتجافٌ لم أعهده في حياتي تمسكت بأهدابٍ من الجأش قليلة وفطنت بأن عليّ طلب نجدةٍ ما أخرجت هاتفي من جيبي واتصلت بمشفى الهلال الأحمر طالباً النجدة موضحاً الأمر بكلماتٍ قليلة ومذعورة.

دقائق ووصلت سيارة إسعافٍ تعوي نزل منها رجالٌ لوّحت بيدي لإرشادهم إلى مكاني كنت أتلعثم وأبكي وأرتجف وأنا أشرح لهم ما جرى قال لي أحدهم وهو خبيرٌ مختصٌ بالمتفجرات والألغام :

- لقد داست صديقتك على لغمٍ وأحسّت به ولا ينفجر اللغم إلا بعد رفع ضغط القدم عنه وهي كانت تعلم ذلك فقد عملت دوراتٍ في الدفاع المدني والكوارث أرادت أن تنقذك وتضحي بنفسها، فأبعدتك إلى السيارة بحجة جلب حقيبتها ولو لم تفعل ذلك كنتما معاً في عداد الأموات ولما اطمأنت إلى وصولك إلى السيارة وابتعادك عن اللغم رفعت رجلها وحدث الانفجار وكانت تعلم أن الانفجار حتميٌّ ولا سبيل لتفاديه فتمزقت أشلاءً وتناثرت مزقاً وفدتك بروحها.

كنت أسمع كل ذلك وكأني في حلمٍ أو كابوس. كنت في ذهولٍ ومرارة.

وجاء رجلٌ ومعه كيسٌ بلاستيكي كبير صار يضع فيه مزقها وأشلاءها يديها وأطرافها، كان وجهها مشرقاً وضّاءً كقمرٍ بهيّ رغم أن بعض رذاذ الدم قد شابه. أصبحت الآن مها كلها في الكيس البلاستيكي قطعاً ممزقة نقلوها إلى صندوق السيارة وأغلقوا الباب شيءٌ لا يُصدّق شيءٌ فوق الخيال.

كنت شبه إنسان فاقداً نصف وعيه مشلولاً مذهولاً في حالةٍ شبه غيبوبة لقد انهرت تماماً أمسكوا بي وألقوني في المقعد الخلفي ممداً وطارت السيارة إلى مشفى الهلال ومها مازالت تقبع في مخزن السيارة وعند الوصول أودعوا الكيس في البراد وضعوني في غرفة الإنعاش والإسعاف وأتى أكثر من طبيب قد اعتراني هيجانٌ أكبر من الجنون مزّقت خدي بأظافري وذهبت إلى الحائط لأصدم رأسي وأفجّره فربطوني إلى السرير وسقوني حبوباً مخدرة فنمت نوماً عميقاً لكنني صحوت في منتصف الليل فوجدت

حقيبتي بقربي وأخرجت قلماً وورقةً وكتبت(ما قيمة حياتي بعد أن ذهبت من حياتي ضموا هذه الورقة إلى مذكّراتي ومشاهداتي ولتكن روايةً وتاريخاً يقرؤها الأحفاد ويعتبر منها أولي الألباب).

لمحت على الطاولة بقربي حبوباً مخدرة وكأس ماء تناولت عشرين حبةٍ وشربت الكأس كله. أحسست في البدء أنني أصعد إلى غيمة، وأن مها تشدني إليها وتمسكني وهي مبتسمةٌ بعذوبةٍ منقطعة النّظير، ووجدٍ طالما تقت إليه. وجهٌ ملائكيّ يذوب حناناً ولهفةً، تمسكني من يدي وقد ازدادت جمالاً وبهاءً لتقول(الآن حان الوقت يا حبيبي لنلتقي ونعيش في محبةٍ أبدية).

* * ❖

جاء الطبيب في الصباح فوجد طاهر بومنجل جثةً هامدة. أخبر الإدارة وتشكلت لجنةٌ أثبتت أن الوفاة نتيجة صدمةٍ لم يتحملها المخ ونتيجة عشرين حبةٍ من المخدر كافيةٍ لتوقف القلب.

قاضي التحقيق موسى اليونس – العمر خمس وخمسون عاماً:

حضرت إلى مشفى الهلال الأحمر بناءً على أمرٍ من المحامي العام لإجراء التحقيق في ملابسات الانتحار ومعي طبيبٌ شرعي . قال الطبيب الشرعي أن خطأ الممرضة أنها نسيت علبة المخدر على المنضدة قريبةٌ من سرير المريض وحققت مع الممرضة فقالت ما كنت أحسب أن ما تناوله من دواءٍ مخدر عقب وصوله سيمكنه من الصحو ليلاً ليفعل ما فعل على العموم كان فعلها خطأ مهنياً جسيماً سوف تعاقب عليه.

وقد لمست من خلال المذكرات أنه يريد لها أن تنشر في كتابٍ على شكل روايةٍ أو تاريخ، وأنه يريد أن يُقبر في سورية في رمسٍ ملاصقٍ لرمس مها عبد القادر التي استشهدت بلغم وأخبرت المحامي العام الذي اتصل بدوره بكبير المفتشين ليأخذ الإذن من ذويه بتنفيذ رغباته كل ذلك تم بسرعة وكان لوزارة الخارجية دور .. فوافق ذووه على ذلك وتم دفنهما

في قبرين متلاصقين في مقبرة الشهداء واقترحت على أولي الأمر بنشر آرائه ومذكراته.

قرؤوا المذكرات وأوعزوا لوزارة الإعلام بالرأي لتنفيذ الوصية وقد نفذت وزارة الإعلام والنشر وصيته وتم طبع روايته لتكون عبرةً للأجيال القادمة ولأخذ الدروس.

تمت

معلومات عن المؤلف :

- الروائي عبد الغني ملوك محامٍ من مدينة حمص
- بدأ حياته ضابطاً في الجيش السوري وتخرج من الكلية الحربية عام 1968
- اشترك في حرب تشرين ونال الأوسمة وعمل عدة دوراتٍ قيادية
- استقال من الجيش برتبة مقدم ليمارس القانون الذي درسه في الجامعة السورية وحصل على إجازة في الحقوق لينتسب بعدها إلى نقابة المحامين في سورية وينال رتبة الأستاذية في المحاماة عام 1987
- مارس المحاماة بشكل فعلي وعملي لأكثر من ثلاثين سنة
- بدأ بكتابة القصة والنشر عام 1964 ومن أشهر رواياته(السوسن البري – أحلام الذئاب – و ثلاثيته مجامر الروث – في قبو الدير – الحب في زمن التحولات – جسر على نهر جاف – أواخر الأيام ..الخ)
- وقد بلغ عدد رواياته أكثر من اثني عشر رواية
- عضو اتحاد الكتاب العرب – محاضر مواظب في المراكز الثقافية ورابطة الخريجين والجامعيين والجمعية التاريخية وعدد من المحاضرات في جامعة حمص وكثير من المنتديات الأخرى